فصل[1]

ثمَّ تأمَّل ٱختلافَ سَير الكواكب وما فيه[2] من العجائب، كيف تجدُ بعضها لا يسيرُ إلا مع رُفقته، ولا ينفردُ عنهم بسَيره أبدًا[3]، بل لا يسيرون إلا جميعًا، وبعضها يسيرُ سيرًا مطلقًا غير مقيَّدٍ برفيقٍ ولا صاحب، بل إذا ٱتفق له مصاحبتُه في منزلٍ رافقَه فيه[4] ليلةً وفارقَه الليلةَ الأخرىٰ، فبينا تراهُ رفيقَه وقرينَه إذ رأيتهما مفترقَين متباعدَين كأنهما لم يتصاحبا قطُّ.

وهذه السيَّارةُ لها في سَيرها سَيران مختلفان غايةَ الاختلاف: سيرٌ عامٌّ يسيرُ بها فلَكُها، وسيرٌ خاصٌّ تسيرُ هي في فلَكها؛ كما شبَّهوا ذلك بنملةٍ تَدِبُّ علىٰ رحًى ذاتَ الشمال[5]، والرَّحىٰ تأخذُ ذاتَ اليمين، فللنملة في ذلك حركتان مختلفتان إلىٰ جهتين متبايِنتَين: **إحداهما**: بنفسها، **والأخرىٰ**: مُكرَهةٌ عليها تبعًا للرَّحىٰ، تجذبها إلىٰ غير جهة قصدِها[6]. وبذلك يجعلُ التقدُّم[7] فيها كلَّ منزلةٍ إلىٰ جهة الشرق، ثمَّ يسيرُ فلَكُها وبمنزلتها إلىٰ جهة الغَرب.

---

(١) «الدلائل والاعتبار» (٨)، «توحيد المفضل» (٨٢ - ٨٤).

(٢) (ح): «وما فيها».

(٣) (ح، ن): «ولا يفرد عنهم سيره أبدا».

(٤) (ح، ن): «وافقه فيه».

(٥) (ح، ن): «ذات اليمين وذات الشمال».

(٦) (ر، ض): «إحداهما بنفسها متوجهة أمامها، والأخرى مستكرهة مع الرحىٰ تجذبها إلى خلفها».

(٧) (ت، ح): «التقديم».

فسَل الزَّنادقة والمعطِّلة: أيُّ طبيعةٍ اقتضت هذا؟! وأيُّ فَلَكٍ أوجَبه؟! وهلَّا كانت كلُّها راتبةً أو منتقلةً[1]، أو علىٰ مقدارٍ واحد، وشكلٍ واحد، وحركةٍ واحدة، وجريانٍ واحد؟!

وهل هذا إلا صُنعُ من بَهَرَت العقولَ حكمتُه، وشَهِدَت مصنوعاتُه ومبتدعاتُه بأنه الخالقُ البارىء المصوِّر الذي ليس كمثله شيء، أحسَن كلَّ شيءٍ خَلَقه، وأتقَن كلَّ ما صَنعَه، وأنه العليمُ الحكيمُ الذي خلق فسوَّىٰ، وقدَّر فهدىٰ، وأنَّ هذه إحدىٰ آياته الدَّالَّة عليه، وعجائب مصنوعاته المُوصِلة للأفكار إذا سافرَت فيها إليه، وأنه خلقٌ مسخَّرٌ مربوبٌ مدبَّر؟!

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فإن قلتَ: فما الحكمةُ في كون بعض النُّجوم راتبًا وبعضها منتقِلًا؟

قيل: إنها لو كانت كلُّها راتبةً لبطلت الدَّلالاتُ والحِكَمُ التي نشأت من تنقُّلها في منازلها ومسيرها في بُروجها، ولو كانت كلُّها منتقِلةً لم يكن لمسيرها منازلُ تُعْرَف بها ولا رسمٌ يقاسُ عليه[2]؛ لأنه إنما يقاسُ مسيرُ المنتقِلة منها بالرَّاتب، كما يقاسُ مسيرُ السَّائرين علىٰ الأرض بالمنازل التي يمرُّون عليها[3].

---

(١) (ت): «منقلبة».

(٢) (ح): «يقاس عليها».

(٣) (ض): «ولا رسم يوقف عليه؛ لأنه إنما يوقف عليه بمسير المنتقلة منها بتنقلها في البروج الراتبة، كما يستدل على سير السائر على الأرض بالمنازل التي يجتاز عليها».

فلو كانت كلُّها بحالٍ واحدةٍ لاختلط نظامُها، ولبطلت الحِكَمُ والفوائدُ والدَّلالاتُ التي في ٱختلافها، ولتشبَّث المعطِّلُ بذلك وقال: لو كان فاعلُها ومبدعُها مختارًا لم تكن علىٰ وجهٍ واحدٍ وأمرٍ واحدٍ وقَدْرٍ واحد.

فهذا التَّرتيبُ والنظامُ الذي هي عليه من أدلِّ الدَّلائل علىٰ وجود الخالق(١) وقدرته وإرادته وعلمه وحكمته ووحدانيَّته.

فصل(٢)

ثمَّ تأمَّل هذا الفَلَكَ الدوَّار بشمسه وقمره ونجومه وبُروجه، وكيف يدورُ علىٰ هذا العالم هذا الدَّورانَ الدَّائمَ إلىٰ آخر الأجل علىٰ هذا التَّرتيب والنظام(٣)، وما في طَيِّ ذلك من ٱختلاف الليل والنَّهار والفصول والحرِّ والبرد، وما في ضِمن ذلك من مصالح ما علىٰ الأرض من أصناف الحيوان والنَّبات.

وهل يخفىٰ علىٰ ذي بصيرةٍ أنَّ هذا إبداعُ المبدع الحكيم، وتقديرُ العزيز العليم؟!

ولهذا خاطبَ الرُّسلُ أممَهم مخاطبةَ من لا شكَّ عنده في الله، وإنما دَعَوهم إلىٰ عبادته وحده، لا إلىٰ الإقرار به؛ فقالت لهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

فوجودُه سبحانه وربوبيَّته وقدرتُه أظهرُ من كلِّ شيءٍ علىٰ الإطلاق، فهو أظهرُ للبصائر من الشمس للأبصار، وأبينُ للعقول من كلِّ ما تَعْقِلُه وتقِرُّ

(١) (ق): «خالقها».

(٢) «الدلائل والاعتبار» (٩)، «توحيد المفضل» (٨٦).

(٣) (ت): «الترتيب والنمط والنظام».

بوجوده؛ فما ينكره إلا مكابرٌ بلسانه، وقلبُه وعقلُه وفطرتُه كلُّها تكذِّبه[1].

قال الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٢ – ٤].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٣ – ٦].

وقال تعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان: ١٠ – ١١].

وقال تعالىٰ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا

---

(١) (د، ت، ق، ن): «وكلها تكذبه».

جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟
بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ
لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ
وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ
شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ
وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ
مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ
فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ
ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً
تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤ ـ ١٧].

وتأمَّل كيف وحَّد سبحانه الآيةَ من قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ ﴾ إلىٰ آخرها، وختَمها بأصحاب الفكر:

فأمَّا توحيدُ الآية؛ فلأنَّ موضعَ الدَّلالة واحد، وهو الماءُ الذي أنزله من السَّماء فأخرَج به كلَّ ما ذكره من الأرض، وهو علىٰ ٱختلاف أنواعه لقاحُه واحدٌ وأمُّه واحدة؛ فهذا نوعٌ واحدٌ من أنواع آياته(١).

(١) (ح، ن): «من آياته».

وأمَّا تخصيصُه ذلك بأهل الفِكْر؛ فلأنَّ هذه المخلوقات التي ذكرها من الماء، فلأنَّ الموضعَ موضعُ فكر، وهو نظرُ القلب وتأمُّلُه، لا موضعُ نظرٍ مجرَّدٍ بالعَين، فلا ينتفعُ النَّاظرُ بمجرَّد رؤية العَين حتىٰ ينتقل منه إلىٰ نظر القلب في حكمة ذلك، وبديع صُنعِه، والاستدلال به علىٰ خالقه وباريه؛ وذلك هو الفِكرُ بعينه.

وأمَّا قولُه تعالىٰ في الآية التي بعدها: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، فجمَع الآيات؛ لأنها تضمَّنت الليلَ والنَّهار والشمسَ والقمرَ والنُّجوم، وهي آياتٌ متعدِّدةٌ مختلفةٌ في أنفسها وخَلْقِها(١) وكيفيَّاتها:

فإنَّ إظلام الجوِّ بالغروب(٢)، ومجيء الليل الذي يَلْبَسُ العالَـمَ كالثَّوب فيسكنون تحته= آيةٌ باهرة.

ثـمَّ وُرودُ جيش الضياء يقدُمه بشيرُ الصَّباح، فينهزمُ عسكرُ الظَّلام، وينتشرُ الحيوان، وينكشِطُ ذلك اللباسُ بجملته= آيةٌ أخرىٰ.

ثمَّ في الشمس التي هي آيةُ النَّهار آيةٌ أخرىٰ، وفي القمر الذي هو آيةُ الليل آيةٌ أخرىٰ، وفي النُّجوم آياتٌ أُخَر ـ كما قدَّمناه ـ، هذا مع ما يَتْبَعُها من الآيات المقارنة لها من الرِّياح واختلافها وسائر ما يحدِثُه الله بسببها= آياتٌ أُخَر.

فالموضعُ موضعُ جَمْع.

---

(١) (ح، ن): «وخلقتها».

(٢) (ح، ن): «الغروب الشمس».

وخصَّ هذه الآيات بأهل العقل؛ لأنها أعظمُ مما قبلها وأدلُّ وأكثر[1] والأولىٰ كالباب لهذه، فمن ٱستدلَّ بهذه الآيات وأعطاها حقَّها من الدَّلالة ٱستحقَّ من الوصف فوق ما يستحقُّه صاحبُ الفِكر، وهو العقلُ. ولأنَّ منزلةَ العقل بعد منزلة الفِكر؛ فلمَّا دلهَّم بالآية الأولىٰ علىٰ الفِكر نَقَلَهم بالآية الثَّانية التي هي أعظمُ منها إلىٰ العقل الذي هو فوق الفِكر. فتأمَّله.

فأمَّا قولُه في الآية الثَّالثة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾، فوحَّد الآية، وخصَّها بأهل التَّذكُّر:

فأمَّا توحيدُها، فكتوحيد الأُولىٰ سواء؛ فإنَّ ما ذَرَأ في الأرض علىٰ ٱختلافه من الجواهر والنَّبات والمعادن والحيوان كلُّه في محلٍّ واحدٍ ومقرٍّ واحد، فهو نوعٌ من أنواع آياته وإن تعدَّدت أصنافُه وأنواعُه[2].

وأمَّا تخصيصُه إياها بأهل التذكُّر؛ فطريقةُ القرآن في ذلك أن يجعَل آياته للتَّبصُّر والتذكُّر؛ كما قال تعالىٰ في سورة ق: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٧-٨]؛ فالتَّبصرة: التعقُّل[3]، والذِّكرىٰ: التذكُّر، والفِكرُ بابُ ذلك ومدخلُه، فإذا فكَّر تبصَّر، وإذا تبصَّر تذكَّر.

فجاء التذكُّرُ في الآية لترتيبه علىٰ العقل المرتَّب علىٰ الفكر، فقدَّم الفكرَ إذ هو البابُ والمدخل، ووسَّط العقلَ إذ هو ثمرةُ الفكر ونتيجتُه، وأخَّر

(١) (ح، ن): «وأكبر».

(٢) (ح، ن): «أوصافه وآياته».

(٣) (ت، د، ق): «العقل».

التذكُّرَ إذ هو المطلوبُ من الفكر والعقل.

فتأمَّل ذلك حقَّ التأمُّل.

فإن قلتَ: فما الفرق بين التذكُّر والتفكُّر؟ فإذا تبيَّن الفرقُ ظهرت الفائدة.

قلتُ: التَّفكُّر والتَّذكُّر أصلُ الهدىٰ والصلاح، وهما قُطبا السَّعادة؛ ولهذا وسَّعنا الكلامَ في الفِكر في هذا الوجه؛ لعِظَم المنفعة وشدَّة الحاجة إليه.

قال الحسن: «ما زال أهلُ العلم يعودونَ بالتذكُّر علىٰ التفكُّر، وبالتفكُّر علىٰ التذكُّر، ويُناطِقون القلوبَ حتىٰ نطقَت؛ فإذا لها أسماعٌ وأبصار»[١].

فاعلَم أنَّ التفكُّر طلبُ القلب ما ليس بحاصلٍ من العلوم[٢] من أمرٍ هو حاصلٌ منها، هذا حقيقتُه؛ فإنَّه لو لم يكن ثَمَّ موادُّ تكونُ[٣] موردًا للفكر ٱستحال الفكرُ؛ لأنَّ الفكرَ بغير متعلَّقٍ متفكَّرٍ فيه محال، وتلك الموادُّ هي الأمورُ الحاصلة، ولو كان المطلوبُ بها حاصلًا عنده لم يتفكَّر فيه.

فإذا عُرِفَ هذا فالمتفكِّر ينتقلُ من المقدِّمات[٤] والمبادىء التي عنده إلىٰ المطلوب الذي يريدُه، فإذا ظَفِرَ به وتحصَّل له تذكَّر به وأبصَر مواقعَ الفعل والتَّرك وما ينبغي إيثارُه وما ينبغي ٱجتنابُه؛ فالتذكُّر هو مقصودُ التفكُّر وثمرتُه، فإذا تذكَّر عاد بتذكُّره علىٰ تفكُّره فاستخرَج به ما لم يكن حاصلًا

---

(١) تقدم تخريجه (ص: ٥١٨).

(٢) (ن، ح): «بحاصل يحصل من العلوم».

(٣) في الأصول: «مراد يكون». وهو تحريف، وسيأتي على الصواب.

(٤) (ح): «المقامات». وهو تحريف.

عنده، فهو لا يزالُ يكررُ[1] بتفكُّره علىٰ تذكُّره، وبتذكُّره علىٰ تفكُّره ما دام عاقلًا؛ لأنَّ العلمَ والإرادة لا يقفان به علىٰ حدٍّ، بل هو دائمًا سائرٌ بين العلم والإرادة.

وإذا عرفتَ معنىٰ كون آيات الرَّبِّ تبارك وتعالىٰ تبصرةً وذكرىٰ؛ يُتبصَّرُ بها مِن عمىٰ القلب، ويُتذكَّرُ بها مِنْ غفلتِه= فإنَّ المضادَّ للعلم إمَّا عمىٰ القلب؛ وزوالُه بالتبصُّر، وإمَّا غفلتُه؛ وزواله بالتذكُّر.

والمقصودُ تنبيهُ القلب من رقدته بالإشارة إلىٰ شيءٍ من بعض آيات الله، ولو ذَهبنا نتتبَّعُ ذلك لنَفِدَ الزَّمانُ ولم نُحِط بتفصيل[2] واحدةٍ من آياته علىٰ التَّمام، ولكن ما لا يُدْرَكُ جملةً لا يُتْرَكُ جملة.

وأحسنُ ما أُنفِقَت فيه الأنفاسُ التفكُّرُ في آيات الله وعجائب صُنْعِه، والانتقالُ منها إلىٰ تعلُّق القلب والهمَّة به دون شيءٍ من مخلوقاته؛ فلذلك عَقَدنا هذا الكتابَ علىٰ هذين الأصلين؛ إذ هما أفضلُ ما يكتسبُه العبدُ في هذه الدَّار.

فصل[3]

فسَل المعطِّل الجاحد[4]: ما تقولُ في دُولابٍ[5] دائرٍ علىٰ نهرٍ قد

(١) كذا في الأصول. ولعلها: يكرُّ.

(٢) (ت): «بتحصيل».

(٣) «الدلائل والاعتبار» (٩)، «توحيد المفضل» (٨٧).

(٤) (ت): «المعطل الجاهل الجاحد».

(٥) آلةٌ تديرها الدابة، يستقىٰ بها الماء. فارسيَّة معرَّبة. انظر: «الصحاح» (دلب)، و«قصد السبيل» (٢/ ٣٨) وحاشيته.

أُحكِمَت آلاتُه، وأُحكِمَ تركيبُه، وقُدِّرَت أدواتُه أحسنَ تقديرٍ وأبلغَه بحيث لا يرىٰ النَّاظرُ فيه خللًا في مادَّته ولا في صورته، وقد جُعِل علىٰ حديقةٍ عظيمةٍ فيها من كلِّ أنواع الثِّمار والزُّروع يسقيها حاجتَها، وفي تلك الحديقة من يقومُ بأمرها ولَمِّ شَعَثِها، ويحسِنُ مراعاتها وتعهُّدَها والقيامَ بجميع مصالحها، فلا يختلُّ منها شيءٌ ولا تَتلفُ ثمارها، ثمَّ يقسِمها قَيِّمُها[1] عند الجَذَاذ علىٰ سائر المَحاويج[2] بحسب حاجاتهم وضروراتهم، فيَقسِمُ لكلِّ صنفٍ منهم ما يليقُ به، ويَقسِمُه[3] هكذا علىٰ الدَّوام.

أترىٰ هذا ٱتفاقًا بلا صانعٍ ولا مختارٍ ولا مدبِّرٍ؟! بل ٱتَّفق وجودُ ذلك الدُّولاب والحديقة وكلِّ ذلك ٱتفاقًا، من غير فاعلٍ ولا قيِّمٍ ولا مدبِّر!

أفترىٰ ما يقولُ لك عقلُك في ذلك لو كان؟! وما الذي يُفتيك به؟! وما الذي يرشدُك إليه؟!

ولكنَّ مِن حكمة العزيز الحكيم أنْ خَلَق قلوبًا عُميًا لا بصائر لها، فلا ترىٰ هذه الآيات الباهرة إلا رؤيةَ الحيوانات البهيميَّة، كما خَلَق أعينًا عُميًا لا أبصار لها، فالشمسُ والقمرُ والنُّجومُ باديةٌ[4] وهي لا تراها، فما ذنبُها إن أنكرَتها وجحدَتها؟! فهي تقولُ في ضوء النَّهار: هذا ليلٌ، ولكنَّ أصحابَ الأعيُن لا يعرفون شيئًا!

---

(١) (ن): «قيمتها». وهو تحريف.

(٢) (ح، ن): «المخارج». تحريف.

(٣) (د، ق): «ويقيمه».

(٤) (ح، ن): «والنجوم مسخرات بأمره».

ولقد أحسن القائل[1]:

وَهَبْني قلتُ: هذا الصُّبحُ ليلٌ أَيَعْمَىٰ العالَمُونَ عن الضياءِ؟!

فصل[2]

ثمَّ تأمَّل المُمْسِكَ للسَّموات والأرض، الحافظ لهما أن تزولا أو تقعا أو يتعطَّل بعض ما فيهما، أفترىٰ من المُمْسِكُ لذلك؟! ومن الحافظُ له؟ ومن القيِّمُ بأمره؟! ومن المُقِيمُ له؟!

فلو تعطَّلت بعض آلات هذا الدُّولاب العظيم والحديقة العظيمة من كان يُصْلِحُه ويُعِيدُه[3]؟! وماذا كان عند الخلق كلِّهم من الحيلة في ردِّه كما كان؟!

فلو أمْسَكَ عنهم قَيِّمُ السَّموات والأرض الشمسَ فجعَل عليهم الليلَ سَرمدًا، من ذا الذي كان يُطْلِعُها عليهم ويأتيهم بالنَّهار؟! ولو حَبَسَها في الأفق ولم يسيِّرها، فمن ذا الذي كان يسيِّرها عنهم ويأتيهم بالليل؟! فلو أزال السَّماءَ والأرض[4]، فمن ذا الذي كان يُمْسِكُهما مِن بعده؟!

فصل[5]

ثمَّ تأمَّل هذه الحكمةَ البالغة في الحرِّ والبرد وقيام الحيوان والنَّبات

---

(١) وهو أبو الطيب المتنبي، في ديوانه (٧١).

(٢) «الدلائل والاعتبار» (١٠)، «توحيد المفضل» (٨٦).

(٣) «ويعيده» ليست في (ح، ن).

(٤) (ح، ن): «ولو أن السماء والأرض زالتا».

(٥) «الدلائل والاعتبار» (١٠)، «توحيد المفضل» (٨٧ - ٨٨).

عليهما، وفكِّر في دخول أحدهما علىٰ الآخر بالتَّدريج والـمُهْلَة حتىٰ يبلُغ نهايتَه، ولو دَخَل عليه مفاجأةً لأضرَّ ذلك بالأبدان وأهلكها[(١)] وبالنَّبات، كما لو خرَج الرَّجلُ من حمَّام مُفْرط الحرارة إلىٰ مكانٍ مُفْرطٍ في البُرودة. ولولا العنايةُ والحكمةُ والرَّحمةُ والإحسانُ لما كان ذلك.

فإن قلتَ: هذا التَّدريجُ والـمُهْلةُ إنما كان لإبطاء سَيْر الشمس في ٱرتفاعها وانخفاضها.

قيل لك: فما السَّببُ في ذلك الإبطاء في الانخفاض[(٢)] والارتفاع؟

فإن قلتَ: السَّببُ في ذلك بُعْدُ المسافة من مشارقها ومغاربها.

قيل لك: فما السَّببُ في بُعْدِ المسافة؟[(٣)].

ولا تزالُ المسألةُ متوجِّهةً عليكَ كلَّما عيَّنتَ سببًا[(٤)]، حتىٰ تُفضِي بك إلىٰ أحد أمرين:

إمَّا مكابرةٌ ظاهرة، ودعوىٰ أنَّ ذلك ٱتفاقٌ من غير مدبِّرٍ ولا صانع.

وإمَّا الاعترافُ بربِّ العالمين، والإقرارُ بقيُّوم السَّموات والأرضين، والدُّخولُ في زُمرة أولي العقل من العالمين.

---

(١) (ق، ت، د): «وأهلها». (ض): «وأسقمها».

(٢) (ن): «الإبطاء والانخفاض والارتفاع».

(٣) في طرَّة (د، ق) هنا التعليقُ التالي: «ولا يمكنه أيضًا أن يقول: بُعْدُ المسافة؛ لأن القمر يقطعها في شهر، والشمس تقطعها في سنة؛ لهذه الحكمة البينة الإلهية». وليس من كلام المصنف؛ وأدخله ناشر (ط) في المتن. ولم يرد في (ر، ض).

(٤) (ق، ت): «شيئًا». (ض): «فلا تزال هذه المسألة ترقىٰ معه الى حيث رقي من هذا القول».

ولن تجدَ بين القسمين واسطةً أبدًا.

فلا تُتْعِبْ ذِهنَك بهذيانات الملحدين؛ فإنها عند من عرَفها من هَوَس الشياطين، وخيالات المبطلين. وإذا طَلَعَ فجرُ الهدىٰ، وأشرقَت شمسُ النبوَّة[1]؛ فعساكرُ تلك الخيالات والوساوس في أوَّل المنهزمين، ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

فصل[2]

ثمَّ تأمَّل الحكمةَ في خَلق النَّار علىٰ ما هي عليه من الكُمُون[3] والظُّهور؛ فإنها لو كانت ظاهرةً أبدًا ـ كالماء والهواء ـ كانت تُحْرِقُ العالم وتنتشرُ ويعظُم الضررُ بها والمفسدة، ولو كانت كامنةً لا تَظْهَرُ أبدًا لفاتت المصالحُ المترتبةُ علىٰ وجودها.

فاقتضت حكمةُ العزيز العليم[4] أنْ جعَلها مخزونةً في الأجسام، يخرجُها وينفُثها الرَّجلُ[5] عند حاجته إليها، فيُمسِكها ويحبسُها بمادَّةٍ يجعلُها فيها من الحطب ونحوه، فلا يزالُ حابِسَها ما ٱحتاجَ إلىٰ بقائها، فإذا ٱستغنىٰ عنها وتركَ حبسَها بالمادَّة خَبَتْ بإذن ربها وفاطرها، فسقطت المؤنةُ والمضرَّةُ ببقائها.

---

(١) (ق، ح، ت، ن): «وأشرقت النبوة».

(٢) «الدلائل والاعتبار» (١١)، «توحيد المفضل» (٩٣ - ٩٤).

(٣) الاستتار والاختفاء.

(٤) (ق، ن): «العزيز الحكيم».

(٥) (ن، ح): «يبقيها». (ت): «ينقشها».

فسبحان من سخَّرها وأنشأها علىٰ تقديرٍ مُحْكَمٍ عجيب، ٱجتمع فيه الاستمتاعُ والانتفاع والسَّلامةُ من الضرر.

قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧١ - ٧٤].

فسبحان ربِّنا العظيم، لقد تعرَّف إلينا بآياته، وشَفانا ببيِّناته، وأغنانا بها[١] عن دلالات العالمين.

فأخبَر سبحانه أنه جعَلها تذكرةً تذكِّرنا بنار الآخرة، فنستجيرُه منها ونهرُب إليه منها، ومتاعًا للمُقْوِين؛ وهم المسافرون النَّازلون بالقَوَاء[٢] والقَيِّ - وهي الأرض الخالية -، وهم أحوجُ إلىٰ الانتفاع بالنَّار، للإضاءة والطَّبخ والخَبْز والتَّدفِّي[٣] والأُنس وغير ذلك[٤].

فصل[٥]

ثمَّ تأمَّل حكمتَه تعالىٰ في كونه خَصَّ بها[٦] الإنسانَ دونَ غيره من

---

(١) (ح): «وأغنانا بدلالتها بها».

(٢) (ق، ت): «بالقوى». (ح): «بالفيافي». (ن): «بالقرا». تحريف.

(٣) (ق، ت): «والدفى».

(٤) انظر: «شفاء العليل» (٦٤٨) وفي مطبوعته تحريفٌ يصحَّح من هنا، و«طريق الهجرتين» (٢٩٩)، و«بدائع الفوائد» (١٥٥٦).

(٥) «الدلائل والاعتبار» (١١)، «توحيد المفضل» (٩٤).

(٦) أي: النار.

الحيوانات، فلا حاجةَ بالحيوان إليها، بخلاف الإنسان؛ فإنه لو فَـقَدها لعَظُـمَ الدَّاخلُ عليه في معاشه ومصالحه، وغيرُه من الحيوانات لا يستعملُها ولا يتمتَّعُ بها.

وننبِّهُ من مصالح النَّار علىٰ خَلَّةٍ[1] صغيرة القَدْر عظيمة النفع، وهي في هذا[2] المصباح الذي يتَّخذُه الناسُ فيقضون به من حوائجهم ما شاؤوا من ليلهم، ولولا هذه الـخَلَّة لكان الناسُ نصفَ أعمارهم[3] بمنزلة أصحاب القُبور؛ فمن كان يستطيعُ كتابةً أو خياطةً أو صناعةً أو تصرُّفًا في ظلمة الليل الدَّاجي؟! وكيف كانت تكونُ حالُ من عَرَض له وجَعٌ في وقتٍ من الليل فاحتاجَ إلىٰ ضِمادٍ[4] أو دواءٍ أو ٱستخراج دمٍ أو غير ذلك[5]؟!

ثـمَّ ٱنظُـر إلىٰ ذلك النُّور المحمول في ذُبالة المصباح، علىٰ صِغَر جوهره، كيف يضيءُ ما حولك كلَّه فترىٰ به القريبَ والبعيد.

ثمَّ ٱنظُر إلىٰ أنه لو ٱقتَبَس منه كل من يُفْرَض[6] أو يُقَدَّرُ من خلق الله كيف لا يفنىٰ ولا ينفدُ ولا يضعُف.

وأما منافعُ النَّار في إنضاج الأطعمة والأدوية، وتجفيف ما لا يُنتَفعُ إلا

---

(١) (ض): «خلقة»، تحريف. وعلىٰ الصواب في «البحار» (٥٧/ ٨٩).

(٢) (ت): «وهي هذه التي في». (ض): «وهي هذا».

(٣) (ض) و«بحار الأنوار» (٣/ ١٢٣، ٥٧/ ٨٩): «تصرف أعمارهم». تحريف.

(٤) وهو العصابةُ يُشَدُّ بها العضوُ المريض. ثم قيل لوضع الدواء علىٰ الجرح وغيره وإن لم يُشَدَّ. «اللسان» (ضمد). وتحرفت في (ح، ن) إلىٰ: «ضياء».

(٥) (ر، ض): «فاحتاج إلى أن يعالج ضمادا أو سفوفا أو شيئا يستشفي به».

(٦) (ن، ح): «يعرض». (ت): «نفرض». والحرف الأول مهمل في (د).

بجفافه، وتحليل ما لا يُنتَفعُ إلا بتحليله، وعَقْد ما لا يُنتَفعُ إلا بعَقْدِه وتركيبه= فأكثرُ من أن يحصىٰ.

ثمَّ تأمَّل ما أُعطِيَتْه النَّارُ من الحركة الصَّاعدة بطبعها إلىٰ العلوِّ، فلولا المادةُ تمسكُها لذهبَت صاعدةً، كما أنَّ الجسمَ الثقيلَ لولا الممسكُ يمسكُه لذهَبَ نازلًا.

فمن أعطىٰ هذا[1] القوَّة التي[2] يَطلُبُ بها الهبوطَ إلىٰ مستقرِّه، وأعطىٰ هذه القوَّة التي تَطلُبُ[3] بها الصُّعودَ إلىٰ مستقرِّها؟! وهل ذلك إلا بتقدير العزيز العليم؟!

فصل[4]

ثمَّ تأمَّل هذا الهواءَ وما فيه من المصالح؛ فإنه حياةُ هذه الأبدان والممسكُ لها من داخلٍ بما تَستَنشِقُ[5] منه، ومن خارجٍ بما تُباشَرُ[6] به من رَوْحِه، فتتغذَّىٰ[7] به ظاهرًا وباطنًا.

وفيه تُطْرَدُ هذه الأصواتُ فيَحْمِلُها ويؤدِّيها للقريب والبعيد؛ كالبريد والرسول الذي شأنُه حملُ الأخبار والرسائل.

---

(١) في الأصول: «هذه». والأشبه ما أثبت.

(٢) (ت): «الذي».

(٣) مهملة في (د). وفي (ق، ت): «يطلب».

(٤) «الدلائل والاعتبار» (١٢)، «توحيد المفضل» (٨٨ - ٩٠).

(٥) (د، ت، ق، ن، ض): «يستنشق». (ر): «تستنشئ».

(٦) (ح، ت، ن، ض): «يباشر».

(٧) (ح، ن): «ليتغذى». (ق، د، ت): «فيتغذى».

وهو الحاملُ لهذه الروائح علىٰ ٱختلافها، ينقلُها من موضعٍ إلىٰ موضع، فتأتي العبدَ الرائحةُ من حيثُ تهبُّ الريح، وكذلك يأتيه الصوت[1].

وهو ـ أيضًا ـ الحاملُ[2] للحرِّ والبرد اللذَيْن بهما صلاحُ الحيوان والنَّبات.

وتأمَّل منفعةَ الريح وما يجري له في البرِّ والبحر، وما هُيِّئت[3] له من الرحمة والعذاب.

وتأمَّل كم سُخِّر للسَّحاب من ريحٍ حتىٰ أمطَر[4]؛ فسُخِّرت له المثيرةُ أوَّلًا[5]، فتُثِيرُه بين السَّماء والأرض، ثمَّ سُخِّرت له الحاملةُ التي تحملُه علىٰ مَتْنها كالجمَل الذي يحملُ الرَّاوية، ثمَّ سُخِّرت له المؤلِّفة، فتؤلِّفُه[6] بين كِسَفِه وقِطَعِه حتىٰ يجتمعَ بعضُها إلىٰ بعضٍ فتصير[7] طبقًا واحدًا، ثمَّ سُخِّرت له اللاقحةُ بمنزلة الذَّكر الذي يَلْقَحُ الأنثىٰ، فتَلْقَحه بالماء ولولاها لكان جَهَامًا لا ماء فيه[8]، ثمَّ سُخِّرت له المُزْجِيَةُ التي تُزْجِيه وتَسُوقُه إلىٰ

---

(١) (ح، ن): «تأتيه الأصوات».

(٢) (ر، ض): «القابل».

(٣) (ت): «هيأن».

(٤) (ت): «أمطرت».

(٥) المثيرة، والحاملة، والمؤلِّفة، واللاقحة، والمُزْجِية، والمفرِّقة= من أسماء الرياح بحسب وظائفها.

(٦) كذا في الأصول، بإثبات الهاء.

(٧) مهملة في (د). وفي (ح، ن): «فيصير».

(٨) الجَهَام: السحاب الذي لا ماء فيه. «اللسان».

حيث أُمِر فيُفرِغُ ماءه هنالك، ثمَّ سُخِّرت له بعد إعصاره المُفرِّقةُ التي تبثُّه وتفرِّقُه في الجوِّ فلا ينزلُ مجتمعًا، ولو نزل جملةً لأهلَك المساكنَ والحيوانَ والنَّبات، بل تفرِّقُه فتجعلُه قَطْرًا.

وكذلك الرياح التي تَلْقَحُ الشجرَ والنَّباتَ ولولاها لكانت عقيمًا.

وكذلك الرياح التي تسيِّر السُّفن ولولاها لوقفَت علىٰ ظهر البحر.

ومن منافعها: أنها تبرِّدُ الماء، وتُضْرِمُ النارَ التي يرادُ إضرامُها، وتجفِّفُ الأشياءَ التي يحتاجُ إلىٰ جفافها.

وبالجملة؛ فحياةُ ما علىٰ الأرض من نباتٍ وحيوانٍ بالرياح؛ فإنه لولا تسخيرُ الله لها لعباده لذَوَىٰ النَّبات، ومات الحيوان، وفسدَت المطاعم، وأنتَن العالمُ وفَسَد.

ألا ترىٰ إذا رَكَدَت الريح(١) كيف يحدثُ الكربُ والغمُّ الذي لو دام لأتلفَ النُّفوس، وأسقَمَ الحيوان، وأمرَضَ الأصحَّاء، وأنهَكَ المرضىٰ، وأفسَدَ الثِّمار، وعفَّن الزَّرع، وأحدَثَ الوباءَ في الجوِّ؟!

فسبحان من جَعَل هُبوبَ الرياح تأتي برَوْحِه ورحمته، ولُطْفِه ونعمته، كما قال النبيُّ ﷺ في الرياح: «**إنها من رَوْح الله، تأتي بالرَّحمة**»(٢).

---

(١) (ح، ن): «الرياح».

(٢) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٧٢٠)، وأبو داود (٥٠٩٧)، وابن ماجه (٣٧٢٧)، وغيرهم من حديث أبي هريرة.
وصححه ابن حبان (١٠٠٧، ٥٧٣٢)، والحاكم (٤/ ٢٣٥) ولم يتعقبه الذهبي.
وصححه ابن حجر في «النتائج»، كما في «الفتوحات الربانية» (٤/ ٢٧٢).
وانظر: «علل الدارقطني» (٢/ ٩٠، ٨/ ٢٧٦).

ونُنبِّه[1] للطيفةٍ في هذا الهواء؛ وهي أنَّ الصَّوتَ أثرٌ يحدثُ[2] عن اصطكاك الأجرام[3]، وليس نفسَ الاصطكاك كما قال ذلك من قاله. ولكنَّه مُوجَبٌ للاصطكاك وقَرْع الجسم للجسم أو قَلْعِه عنه؛ فسببُه قرعٌ أو قلع، فيحدثُ الصَّوت، فيحملُه الهواءُ ويؤدِّيه إلىٰ مسامع الناس، فينتفعون به في حوائجهم ومعاملاتهم بالليل والنَّهار، وتحدثُ الأصواتُ العظيمةُ من حركاتهم.

فلو كان أثرُ هذه الحركات والأصوات يبقىٰ في الهواء كما يبقىٰ الكتابُ في القرطاس لامتلأ العالمُ منه، ولعَظُمَ الضررُ به واشتدَّت مُؤنتُه، واحتاج النَّاسُ إلىٰ مَحْوِه من الهواء، والاستبدال به، أعظمَ من حاجتهم إلىٰ الاستبدال بالكتاب المملوء كتابةً[4]؛ فإنَّ ما يُلقىٰ من الكلام في الهواء أضعافُ ما تُودَعُه القراطيس[5].

فاقتضت حكمةُ العزيز الحكيم أنْ جَعَل هذا الهواءَ قرطاسًا خفيًّا[6]، يحمِلُ الكلامَ بقَدْر ما يبلغُ الحاجةَ ثمَّ يُمْحىٰ بإذن ربِّه، فيعودُ جديدًا نقيًّا لا شيء فيه[7]، فيَحْمِلُ ما حمَّل كلَّ وقت.

---

(١) (ن، ح): «وتنبَّهْ»، هكذا مضبوطة.

(٢) (ح، ن): «محدث».

(٣) (ر، ض): «أثر يؤثره اصطكاك الأجسام».

(٤) (ت): «بالكتاب الذي مملوء من الكتابة».

(٥) (ح): «يودع في القرطاس». (ن، ت): «يودع القرطاس».

(٦) (ق، ت): «خفيفا». (ض، ح، ن، ر، د): «خفيا»، وأصلحت في طرة (د) إلى «خفيفا». والوصف هنا بالخفاء أشبه.

(٧) (ن): «لا أثر فيه».